

عامر دهامشة *

ما وراء ثنائية تملك المكان قراءة مقارنة بين الأسماء العربية والأسماء العبرية للمعالم الطبيعية

ملخص

تبحث هذه المقالة في سياسات تسمية المعالم الطبيعية، من خلال مقارنة الأسماء العربية-الفلسطينية بالأسماء العبرية التي فُرضت عليها بعد عام ١٩٤٨. تنطلق الدراسة من الطوبونيميا النقدية لفهم التسمية بوصفها أداة ثقافية وسياسية تسهم في إعادة تشكيل المكان والذاكرة والهوية. يبيّن البحث أن عبرنة أسماء الوديان والينابيع والجبال لم تقتصر على تثبيت السيادة الإسرائيلية ومحو الأسماء الفلسطينية، بل شملت أيضاً أبعاداً لغوية وجندرية وثقافية لها صلة بطريقة تصور الطبيعة والتعامل على الأرض. من خلال تحليل استراتيجيات العبرنة مثل توحيد الأسماء، إلغاء التعدّد الدلالي، تذكير المعالم، وتجميل الأسماء، توضح المقالة كيف أُعيد إنتاج المشهد الطبيعي بوصفه فضاءً "محايداً" ومنفصلاً عن تاريخه الفلسطيني. تخلص الدراسة إلى أن أسماء المعالم الطبيعية تكشف عن اختلاف عميق بين الفلسطينيين والإسرائيليين في علاقتهم بالمكان والطبيعة، وأن التسمية تشكل ساحة مركزية للصراع على المعنى والذاكرة، لا تقل أهمية عن الصراع على الأرض نفسها.

كلمات مفتاحية

التسميات الجغرافية؛ الطوبونيميا النقدية؛ أسماء عبرية وأسماء عربية، الهوية المكانية؛ محو الذاكرة؛ الجغرافيا الثقافية.

* باحث وأكاديمي مختص في قضايا اللغة والثقافة، يشغل منصب مُحاضر في الكلية الأكاديمية العربية للتربية في حيفا وزميل باحث في جامعة حيفا. أتمّ زمالة ما بعد الدكتوراه في الجامعة العربية بالقدس، كما شغل زمالة ما بعد الدكتوراه في جامعة تل أبيب بين عامي ٢٠١٢-٢٠١٤، مقدّماً أبحاثاً تعالج تداخلات اللغة، والهوية، والمعرفة في السياق الفلسطيني في الثقافة الإسرائيلية بالإضافة إلى كونه يبحث في الأدب العبري.

المقدمة

"ليس كغنمنا الأنيقة غنمهم البائسة {...} صامتة صامتة الغنم، خاضعة مثل رعاتها العنيفين. وفي الوسط ينام الراعي، مظلم ككتلة من البازلت، تقترب منه {...} فيكشف عن أكثر أسنانه بابتسامة متودّدة، بعضها يلمع وبعضها متعفن، ورائحته تضربك بقوة"¹

(عاموس عوز)

المشهد الفلسطيني وهويته اللغوية. انقطعت معظم الأودية والأراضي التي كانت تعود إلى القرى الفلسطينية عن محيطها، وأغلقت داخل أسوار المحميات الطبيعية وداخل الكيبوتسات والموشافيم وانتحلت أسماء عبرية. وبالتوازي مع منح أسماء عبرية للمستوطنات الجديدة، قامت الحركة الصهيونية بمحو الأسماء الفلسطينية، وترجمتها إلى العبرية وتهويدها استناداً إلى التشابه الصوتي بين اللغتين.

لقد اعتبرت الصهيونية أن الطوبونوميا (Toponymy)، أي الدراسة العلمية لتسمية الأماكن والمعالم الجغرافية) ليس جزءاً من الصراع بين اللغات العبرية والعربية فحسب، بل جزءاً لا يتجزأ من الصراع على السيطرة على الأرض واستملاكها، ومن الصراع على جغرافية إسرائيل-فلسطين وأداة للانفصال عن عروبة المكان وهويته السابقة. تظهر أسماء البلاد العربية على اللافتات الإسرائيلية باللغة العربية واللغة العبرية (وأحياناً بالانجليزية) لكن أغلبية أسماء المعالم الطبيعية لا تظهر على اللافتات لأن لجان التسميات الإسرائيلية تجاهلتها ولم تعترف بها.²

من أجل بناء ذاكرة وطنية، طمست الحركة الصهيونية ومحمت الهوية اللغوية التي كنى بها الفلسطينيون بيئتهم، وأطلقت أسماء يهودية وعبرية على الأماكن ضمن إطار مشروع رسم الخريطة العبرية وكفعلت تنسجم مع مشروع إحياء اللغة العبرية.³ وقد تم تطبيق عملية العبرنة والتهويد الرسمية للأماكن من خلال إنشاء "اللجنة الجغرافية لتحديد الأسماء في النقب"، التي عينها أول رئيس وزراء لإسرائيل، دافيد بن غوريون، عام ١٩٤٩. ومنذ ذلك الحين تعمل لجان الأسماء الإسرائيلية بشكل ممنهج على توسيع وتعميق نزع الهوية اللغوية العربية عن المكان.

فعملية عبرنة الأسماء ليست فقط نتيجة لقرار سياسي مباشر في لحظة زمنية محددة، بل إن نزع الطابع الفلسطيني عن المشهد الطبيعي والطرق

هذه هي كلمات الراوي عاموس عوز في قصته "الرحالة والأفعى". يسرد الراوي قصة مزارع إسرائيلي من كيبوتس في الصحراء يلتقي راعياً بدوياً يرعى غنمه بمحاذاة الكيبوتس فيقارن بين غنم الراعي العربي وغنم الكيبوتس بعبارة استشرافية ويشحن المشهد، الغنم وراعيها، بمعاني قذرة ومظهر يُثير الاشمئزاز بينما يصف الأغنام الإسرائيلية على أنها أنيقة، كناية عن أناقة البيئة الاسرائيلية. هكذا تُنتج الشخصية القصصية الإسرائيلية فجوة ثقافية وعرقية، فجوة في النظافة واللون، لتحافظ على مسافة من البدوي وتقيم الحدود ليس فقط بينها وبين الشخصية الإسرائيلية، بل أيضاً بين البيئات الحيوانية. يبدو أن موتيف النأي عن العرب والفلسطينيين في الفكر الإسرائيلي، وموتيف رائحة الشرق المقزز، كتعبير عن التفوق الثقافي والجمالي، هو موتيف بنيوي محوري يميز العلاقات غير المتجانسة بين المجتمعات الاستعمارية والآخر كما يقول وولف،⁴ كما يتضح من توجيهات أول رئيس وزراء إسرائيلي، دافيد بن غوريون (حكم بين ١٩٤٨-١٩٦٣)، إلى لجنة تسميات النقب: "وكما أننا لا نعترف بالملكية السياسية للعرب على أرضنا، فإننا لا نعترف بملكيتهم الروحانية [...] ولسنا نحتاج إلى أسماء تفوح منها رائحة عربية".⁵

تسببت حرب عام ١٩٤٨ بفقدان معظم الأراضي الفلسطينية، إذ تم تهجير أكثر من نصف السكان الفلسطينيين على يد القوات الصهيونية، وتم تخصيص أراضيهم للمستوطنات اليهودية. لقد عمل المشروع الصهيوني على محو أي أثر لطرد الفلسطينيين من خلال تدمير بقايا القرى العربية، بحجة أنها تضر بطبيعة المشهد الحديث.⁶ في أعقاب هذه الحرب تم طمس

1 الموتيف هو عنصر أو فكرة أو صورة تتكرر داخل العمل الأدبي، ويكون لها دور دلالي في تطوير الثيمة أو المعنى العام للنص. قد يكون الموتيف كلمة، مشهداً، رمزاً، صوتاً، أو حتى حالة شعورية تتكرر لتمنح النص انسجاماً وتعمق رسالته.



■ محو الأسماء.. أداة رئيسة في مشروع المحو. (وكالات)

هامشيًا، و"صغيرًا" وبعيدًا، مقارنةً بموقع الحيز المأهول بالسكان، أي البلدة، والتي يَمُرُّ فيها المارة والمسافرون. البلدات والأماكن المأهولة تُشكّل قاعدة للنشاط الإنساني المستمر، تتميز بحركة بشرية مستمرة وتعتبر جبهةً أمامية للترويج الفكري، ووكيلًا مركزيًا للقوة المهيمنة. أما المواقع الطبيعية فيُنظر إليها على أنها أقل حيوية للحياة اليومية في المجتمع الحديث، وزيارتها تكون مؤقتة وعرضية. ومثلما هو الحال في المناطق الطرفية والناحية، فإن المعالم الطبيعية ليست "الآخر المطلق"، غير أن حضورها في الحياة اليومية ليس واضحًا، وكذلك حال "آخرويتها" (أي الآخر بالنسبة لها). تعتبر أسماء الأماكن المأهولة وافتات الشوارع عناصر ثقافية وتُستخدم لنشر التاريخ الرسمي للسلطة بدرجة أكبر من أسماء المعالم الطبيعية. وقد تفتّر هذه الهرمية كثرة النقاش الأكاديمي في إسرائيل والعالم حول أسماء الأماكن المأهولة وأسماء الشوارع، مقابل هامشية النقاش حول هوية أسماء المعالم الطبيعية.^٦ تُقارن هذه المقالة بين الأسماء الفلسطينية للمعالم الطبيعية وبين الأسماء الإسرائيلية التي أعطتها لجان التسميات الإسرائيلية والمؤسسات الإسرائيلية كبدليل

تعمّق بمرور السنوات. فالعبرنة التي بدأت كعملية سياسية أصبحت لاحقًا نتاجًا لأفعال مستمرة من البناء، والتوسع وإنشاء المستوطنات والمحميات الطبيعية وشقّ الطرق. ومؤخرًا، تمّ تقنين السياسة الإسرائيلية ضد الأسماء العربية-الفلسطينية في إطار القانون الإسرائيلي. إذ أقرّت إسرائيل قوانين وتشريعات تهدف إلى تهميش مكانة اللغة العربية، ففي عام ٢٠١٨ سنّت الكنيست الإسرائيلية "قانون القومية" الذي جرّد اللغة العربية من مكانتها كلغة رسمية في الدولة. تعني الممارسة الفعلية لتهميش اللغة العربية وفق هذا القانون محو ما نجى من الأسماء العربية من الافتات أو تقليص ظهورها في الحيز العام، كما حدث مع محو اسم القدس من بعض الافتات واستبداله باسم "يرושلايم" كما يلفظ بالعبرية.

من المعتاد في البحث العلمي، في علم الطوبينما، التمييز بين أسماء الأماكن المأهولة (Habitation names)، أو التي كانت مسكونة وبين أسماء المعالم الجغرافية الطبيعية مثل الجداول والجبال، والأودية، والينابيع، وغيرها.^٧ من الناحية الجغرافية والثقافية، تعتبر المعالم الطبيعية فضاءً جغرافيًا خلفيًا،

الأسماء التي تُكوّن الخريطة الإسرائيلية تُشكّل طبقةً واحدةً من منظومة أسماء متعدد الطبقات وهي جزءٌ من ادعاء أيديولوجي. تُشكّل القراءة المناهضة لخريطة الجانب المهيمن تحديًا للسردية القومية التي تدّعي الحصرية التاريخية للمكان، وتكشف عن إمكاناتٍ جديدةٍ لفهم تشكيل سردية المكان.

عن التسميات العربية-الفلسطينية. يناقش هذا البحث في معالم طبيعية تقع ضمن نطاق دولة إسرائيل وسيطرتها. وتتمثّل الفرضية الأساسية في أنه، على الرغم من هيمنة السردية القومية الصهيونية في أسماء الأماكن، ينبغي قراءتها في سياقٍ أوسعٍ ومتعدّد: فيإلى جانب توظيف التسمية لأغراض استملاك الأراضي الفلسطينية، يمكن تمييز ما أُسميه "فئات وسيطة" - أي أن هناك ممارسات لغوية متمرّدة وأبعاد اجتماعية وثقافية وعاطفية وعملية متعدّدة الطبقات والأبعاد، أخذت بعين الاعتبار عند استبدال الأسماء العربية بأسماء عبرية دون أن تلتزم فقط بمنطق السيادة القومية الساعية للهيمنة. هذا يعني من وجهة نظري أن أسماء الأماكن تحوي مفاهيم وفئات وسطية (Intermediate categories) ما وراء-سياسية ترتبط بقيم ثقافية وبأبعادٍ تواصلية. تقدّم قراءتي لمصطلحات الأسماء التي سُميت بها المعالم الطبيعية تفسيراً يبرز رمزيّتها لكون هذه المعالم "حيزاً خلفياً". فهذا الحيز يضمّ طيفاً واسعاً من التشكّلات الطبيعية والمعالم التي تتيح تصوّرات وصوراً متنوّعة، تُلقى الضوء على علاقة الثقافتين الفلسطينية والإسرائيلية بالطبيعة وعلى طريقة تصوّر كلّ منهما لها.

١. الحيز الأصلي الفارغ

في فضاءات الصراعات القومية مثل الصراع الإسرائيلي-الفلسطيني، تُعتبر التسمية أداةً في معركة السيادة على الأرض. ففي واقع كهذا، تمنح سياسة التسمية - أي عمليّات إنشاء الأسماء من قبل السلطة - شرعيّة رسمية للزعم التاريخي والقومي وترسّخ تفوّقه^١ في التخطيط الكولونيالي، يُنخّل الحيز الأصلي كفضاءٍ غير متحضّر، ملوّث، فوضوي وغير متزامن مع العصر. وتتمثّل مهمّة القوة الاستعمارية في إعادة بناء فضاءٍ

حديثٍ مكان الفضاء الأصلي، مع الحفاظ على مسافةٍ ثقافية عن السكّان الأصليين.^{١٠} وقد رافقت ممارسات البناء هذه عمليّات تعديلٍ لخرائط المجتمعات الأصلية وتحريفٍ لأسمائها بهدف تعزيز الحكم الاستعماري وتحقيق السيطرة على الأراضي. كان الاستعمار الأوروبي أيضاً نموذجاً مادياً، وكان طموحه المركزي هو امتلاك الأراضي. كخطوة تمهيدية للسيطرة الفعلية عليها، تخيل الاستعمار هذه الأراضي باستخدام وسائل بلاغية بررت هذه السيطرة، مثلاً من خلال تعبيرات لغوية وصفت أراضي السكان الأصليين بأنها أراضٍ خالية وملوثة، يجب تحريرها من تخلفها وأنكر ملكيّة السكّان الأصليين للأراضي.^{١١} يشبه موقف الصهيونية من السكّان الفلسطينيين الأصليين إلى حدّ كبير موقف الاستعمار الأوروبي من المجتمعات الأصلية. فالصهيونية أيضاً رأت في المصطلحات والمسوحات الجغرافية آلياتٍ لتبرير حقّها في البلاد بوصفها "رقعة بيضاء" متجاهلة الوجود الثقافي للفلسطينيين وقراهم.^{١٢} وجد هذا الموقف السياسي تعبيراً له في المستوى الرمزي، وقد دعمته مفاهيم مثل "صحراء قاحلة" بوصفها استعارةً لتصوير البلاد كـ "أرض بلا شعب" - أرض فارغة وهمجية، سكّانها العرب سليليون ويشكّلون جزءاً من الطبيعة ذاتها.^{١٣}

حصر معظم الباحثين الإسرائيليين الذين تناولوا موضوع التسميات العبرية ومفاهيم لجان الأسماء الإسرائيلية أنفسهم داخل السردية السياسية التي تؤديها هذه الأسماء خاصة تثبت الملكية الإسرائيلية على المكان. فقد ركّزت أبحاثهم على المبادئ التي وجّهت عمل لجان الأسماء الإسرائيلي، ودرست الأسماء بوصفها إطاراً فكرياً، ووضعت في مركزها ما يُسمّى بـ "المكان الكبير".^{١٤} أي إسرائيل وفلسطين، مستخدمةً مفاهيم مثل "اليهود-العرب"، "الخريطة العبرية"،

"أرض التوراة" و"الذاكرة القومية الإسرائيلية"^{١٥} على خلاف ذلك، يركّز بحثي على أماكن صغيرة نسبياً مثل الوديان والجداول والتلال وغيرها، ويولي اهتماماً خاصاً ببناء هويتها اللغوية-الثقافية العينية عبر أسمائها. أظهرت الدراسات التي تناولت الأسماء الإسرائيلية التي نشأت على أنقاض الأسماء العربية-الفلسطينية كيف استُخدمت خريطة التسميات كآلية رمزية لبناء القومية الإسرائيلية، وأبرزت التوتر الثنائي القومي من خلال تناول المحو والذاكرة.^{١٦} حقا إن المحو القومي-السياسي هو سمة مهيمنة في إنتاج هوية الأسماء، غير أنّ اختيار الأسماء لا يقوم فقط على البعد القومي، بل يتضمّن أيضاً اعتبارات سوسولوجية، إثنية، وسيكولوجية تتعلق باللغة، وترتبط بمفهوم المكان لدى الإسرائيليين ولدى الفلسطينيين كمجموعات ثقافية، وليس فقط كمجموعات سياسية. لقد ركّزت الدراسات حول نزاع الأسماء العربية-الفلسطينية التي ذُكرت أعلاه على جانب السامعي (أي الفاعل الذي يقوم بفعل المحو)، أي على الفعل السياسي الذي فرضته لجان الأسماء الإسرائيلية، وعلى نتائج التدميرية بالنسبة للطرف الممحو، أي الفلسطينيين وعلاماتهم اللغوية المكانية. في مقالي هذا، أسعى إلى الجمع بين ثقافة السامعي وثقافة الممحو، أي بين الثقافة والهوية الكائنتين في الأسماء الفلسطينية وبين كيفية تفكيكهما وإعادة إنتاج السلطة الإسرائيلية لهما.

الجوانب المنهجية

في السنوات الأخيرة، حظيت سياسات تسمية الأماكن في إسرائيل وفلسطين باعتراف أكاديمي وجماهيري متزايد كممارسة ثقافية وسياسية مهمة تستحق اهتماماً جاداً. تكشف ممارسات التسمية الرسمية وغير الرسمية عن ثغرات في تسميات النظام المهيمن،^{١٧} وكذلك الأبحاث تعاني من ثغرة لعدم مقارنة الأسماء العربية والعبرية بشكل عيني. يفتقد الأدب البحثي إلى تحليلٍ مقارنٍ منهجي بين أسماء المعالم الطبيعية العبرية والعربية. في مقالي سأعيد هذا الموضوع إلى مقدّمة المشهد البحثي عبر مقارنة بين الأعراف والمواضيع المتجلية في الأسماء العبرية والأسماء العربية-الفلسطينية في سياقاتٍ محددة وملموسة. من خلال هذه المقارنة سأفحص التحوّلات الثقافية واللغوية التي أحدثها التسمية الإسرائيلية في الأسماء الفلسطينية وفي تصوّر ووصف الطبيعة

الذي تعبّر عنه الأسماء الفلسطينية من خلال تحليل استراتيجيات العبرنة وعبر دراسة موقف الثقافتين — الإسرائيلية والفلسطينية — من الطبيعة عبر أسمائها. قراءة مقارنة قد تكشف عن احتشاد دلالات ثقافية متعدّدة الطبقات في تسمية الجغرافيا، لا يمكن الوصول إليها في دراسات تفصل بين أسماء مجموعات لغوية على حدة، وتمكّن من تتبّع تغيّرات في معنى المكان، كما بين بعض الباحثين،^{١٨} من خلال مقارنة أسماء السكان البيض والسكان الأصليين (الهنود الحمر) في نيويورك. استناداً إلى المقاربات ما بعد الحداثيّة، سأبحث كيف يتم إنتاج المشهد الطبيعي كآلية سياسية وثقافية تستخدمها السلطة الحاكمة.^{١٩} يسعى النهج السيميائي-الرمزي والطوبونيميا النقدية إلى سبر أغوار المعاني المبطنّة داخل البنى العميقة للعبارة اللغوية وأسماء الأماكن.^{٢٠} من خلال أدوات نقدية لدراسة الواقع التي تُنشئ الأسماء الجغرافية أو تُخفيها، يمكن الكشف عن السياسة الكامنة وراء الأسماء، وعن تاريخ وثقافة وجينالوجيا المشهد الطبيعي.^{٢١} تُبرز المقاربات المنتمية إلى علم الفولكلور والأنثروبولوجيا أهمية التسمية لدى الشعوب الأصلية بوصفها أداة لتنظيم الحيز والفضاء وفقاً لمبادئ إثنوغرافية،^{٢٢} كما تُظهر أهمية القصص واللغة والمعتقدات الأصلية في إضفاء المعنى والقيمة على المكان، وفي الكشف عن تصوّراتهم ومداركهم للبيئة والمكان.^{٢٣} في النقد ما بعد-الاستعماري يتم التّركيز على التحوّلات اللغوية والثقافية والجغرافية التي تقوم بها السلطة الحاكمة عند تفاعلها مع السكان الأصليين. فالمعرفة بد "الأخر"، غير الغربي، تُستخدم في الوقت نفسه كأساس لفهم الثقافة الأخرى وإنشاء صور عنها، وبالموازاة كأداة لبناء هوية منتجي المعرفة أنفسهم.^{٢٤} وانطلاقاً من هذا النهج يربط بحثي بين قضايا القومية وعلاقات السيطرة والحداثة والمبادئ الثقافية، للكشف عن الأبعاد الثقافية الكامنة وراء التحوّل الذي أحدثته الصهيونية في هوية البيئة الجغرافية الفلسطينية. الأسماء التي تُكوّن الخريطة الإسرائيلية تُشكّل طبقةً واحدة من منظومة أسماء متعدد الطبقات وهي جزء من ادعاء أيديولوجي. تُشكّل القراءة المناهضة لخريطة الجانب المهيمن تحدياً للسردية الوطنية التي تدّعي الحصرية التاريخية للمكان، وتكشف عن إمكانيات جديدة لفهم تشكيل سردية المكان.

استلزم امتلاك المكان من الحركة الصهيونية

قراءة مقارنة بين الأسماء العربية والأسماء العبرية للمعالم الطبيعية

مواجهة "آخرين" اثنين: المهاجرين اليهود، والفلسطيني ابن البلاد.^{٢٥} وقد انعكست العلاقة مع هذين "الآخرين" أيضًا في تشكيل الصورة اللغوية للبلاد. إنَّ دراستي لتبدُّل الأسماء تهدف إلى الكشف عن آليات التغريب الثقافي واللغوي التي مارسها المؤسسات الصهيونية تجاه التسميات العربية-الفلسطينية، وكذلك عن آليات التطبيع التي أنشأتها في علاقتها بالمهاجرين اليهود ولاحقًا بسكَّان إسرائيل عربيًا ويهودًا.

المصادر الأولية العبرية التي استخدمتها في هذا البحث هي المراجعات الدينية اليهودية القديمة، التوراة وأدب الحاخامات، إلى جانب الموسوعات والمعاجم الإسرائيلية في مجال الجغرافيا التاريخية (موسوعة مباح ٢٠٠٠). أمَّا في دراستي للطوبونيميا العربية-الفلسطينية فقد استندت إلى القليل من المنشورات المتوفرة والمقابلات التي أجريتها مع شخصيات محلّية وشروحاتٍ أيولوجية (Etiology، أي دراسة الأسباب أو منشأ الظواهر) وشعبية لأسماء مستمدة من المعرفة الثقافية الشفوية للمجتمع الفلسطيني،^{٢٦} بالإضافة إلى الاعتماد على مراجع مكتوبة أولية مثل موسوعة مباح (٢٠٠٠) بالإضافة إلى أعمال شكري عراف.^{٢٧}

٢.٢ قراءة مقارنة في التسميات الإسرائيلية والفلسطينية للمعالم الطبيعية

منذ بداية وصول المستوطنين الجدد في ماب تات يعرف في السردية الصهيونية بالهجرة الأولى (١٨٨٢-١٩٠٣)، لعبت "عبرنة" البلاد والذاكرة التوراتية دورًا رمزيًا في تحويل الأرض إلى مكان ينتمي عاطفيًا للمستوطنين اليهود. وقد رافق تأميم الأرض إنكارًا للارتباط التاريخي والقومي للفلسطينيين بالمكان.^{٢٨} في الخطاب الصهيوني، يُصوّر الفلسطينيون كـ "آخر" وغريب، بينما يُنظر إلى اليهود كمركز.^{٢٩} وقد تم تفعيل هذا التصوّر أيضًا في ميدان الأسماء. فالتسمية العبرية تُعدّ مركزية وفقًا للذهنية والقوانين الإسرائيلية، في حين تُعتبر التسمية الفلسطينية "أخرى" غير شرعية. وتترتب على هذا التصوّر شرعية لقمع أسماء "الآخر"، واستخدامها ليس من أجلها، بل لترسيخ وعي ما يُعتبر المركز.

لقد قسمتُ الأسماء التي شكلت قاعدة بحثي هذا إلى فئات تحليلية. ولا تُعدّ هذه الفئات منفصلة تمامًا، إذ قد يظهر جانبٌ ما في فئة معينة، لكنه يمكن أن يظهر

أيضًا في فئة أخرى. ولتجنّب التكرار، سأركّز في كل فئة على استراتيجية مهيمنة.

٢.١ التوحيد عوضًا عن التمايز

أحد الأعراف الطوبونيمية البارزة في التسميات العربية-الفلسطينية هي تسمية كلّ جزء أو مقطع من وادٍ، وكلّ مقطع من جبل، باسم منفصل. وهكذا نجد عدّة أسماء على طول مسار الوادي أو في الطريق الصاعدة إلى الجبل. في المقابل، أحد مبادئ عبرية الأسماء هو التوحيد والشمولية، أي تحديد اسم عبري واحد للمكان بجميع أجزائه. يعتبر التوحيد استمرارًا لممارسة أوروبية حديثة، وقد طُبّق هذا المبدأ من أنظمة أوروبية وغربية تجاهلت تصورات المجتمعات الأصلانية. وقد شرّعت الأعراف الطوبونيمية الحديثة على مبدأ التوحيد، استخدام لغة جغرافية موحدة وواحدة كأداة سياسية واقتصادية في خدمة الدولة الحديثة، كما حدث، على سبيل المثال، مع الاستيطان الأوروبي-الأمريكي في شمال شرق أميركا.^{٣٠}

مثال على مبدأ التوحيد في الأسماء التي أعطتها لجان التسميات الإسرائيلية بدل الأسماء الفلسطينية هو وادي يفتحييل. يتم ربط هذا الوادي مع وادي "جاي يفتحييل" التوراتي، كما ورد سفر يشوع: "وخرج رمون... وكانت نهاياته وادي يفتحييل" (يشوع ١٩: ١٣-١٤). معنى الصيغة "يفتحييل" هو أن الله يفتح، أي يحرق الأرض، بحيث تصبح تربتها ليننة وسهلة للزراعة. يبدأ هذا الوادي من قرية لوبية المهجرة وينتهي عند مفرق الخلاية^{٣١} في مركز الجليل الأسفل، وقد تم إطلاق الاسم "يفتحييل" على كامل مجرى الوادي وعلى رافدين قريبين يصبان فيه، وهو يشير إلى مساحة يبلغ طولها ٢٤ كيلومترًا. بالمقابل يوجد في اللغة العربية ستّة أسماء للإشارة إلى مسار هذا الوادي: "وادي المعاصر"، و"وادي المغر"، و"وادي جريان" الذي سُمّي هكذا بسبب شكله البشع والمتعرّج، الذي يشبه في هيئته الشخص المصاب بالجرب، و"وادي الأعوج" الذي سُمّي هكذا بسبب اعوجاج مساره، و"وادي رُمّانه" على اسم قرية رُمّانة، و"وادي الخلاية" على اسم خربة الخلاية التي كانت ملاذًا ومأوى مؤقتًا للبدو. وقد تعود التسمية العربية المنفصلة لكل قسم من أقسام الوادي نظرًا إلى أنّ كلّ قرية يمرّ مسار الوادي من أراضيها،

التهويد قائم على تصنيف شمولي يتجاهل العلاقة المكانية الذاتية والملموسة، ويتجاوز التمايز اللغوي الناتج عنها. الانتقال من التسمية العربية إلى التسمية العبرية هو انتقال من علاقة شخصية وخاصة مع عناصر الطبيعة، إلى علاقة شمولية وباردة تعكس منظورا من عل، كمن يرى من "عين الطائر".

٢.٢ الأحادية الدلالية عوضاً عن التطابق

الأحادية الدلالية هي مبدأ بارز في التسمية العبرية، ومفادها أن على الاسم أن يشير إلى معلم واحد فقط، وذلك للفصل بين الأماكن ولمنع الالتباس. أما في التسمية العربية، فمن الشائع استخدام الاسم نفسه لأماكن مختلفة. هذا الأسلوب معروف في مناطق الشعوب الأصلانية، مثلاً بين الهنود الحمر في مقاطعة أونونداغا (Onondaga) في الولايات المتحدة.^{٣٢} في أعرف وعادات التسميات العربية-الفلسطينية نجد اسماً متشابهاً لمعالم طبيعية مختلفة وحتى لقرى مختلفة، مثل اسم الطيبة الذي تُكنى به بلدات عربية عدّة في إسرائيل والضفة الغربية والدول المجاورة. ونجد أمثلة أخرى لأماكن تحمل باللغة العربية عنصراً لغوياً مطابقاً في الأسماء التي يكون الممرّب الثاني فيها كلمة "التين" أو "التينة"، بسبب أشجار التين التي تنمو في المكان أو التي نمت فيه سابقاً، مثل "وادي التين" في كفر كنا و"وادي عين التينة" في مركز الجليل الغربي وفي بلاد الروحة (رمات منشييه)؛ و"عين التينة" في وادي ميرون والغوير (غور جينوسار) شمال-غرب بحيرة طبرية. الأسماء العربية التي تحتوي على المكوّن النباتي، التين، تم استبدالها بأسماء عبرية مثل: عين كنار، عين باجا، عين يكيم، وناحال ميرون. يُمكننا التعامل مع هذا التطابق بين أسماء أماكن مختلفة في اللغة العربية على أنه شيفرة مجتمعية تُبرز إدراكاً شعبيّاً جمعياً لجوهر ظواهر في الطبيعة أو لصفات المكان ومزاياه. وبما أن أسماء المواقع الطبيعية في المجتمع العربي-الفلسطيني أُستُخدمت في الأساس للتواصل داخل البلدات، فإنّها بالتالي لم تكن عاملاً معيقاً للتواصل من وجهة نظر من يستخدمونها، رغم أنّها تتكرّر في مواقع مختلفة. تنبع تسميات لجان الأسماء الحكومية الإسرائيلية

أعطت وفق مداركها وتأويلاتها مصطلحاً مغايراً لكلّ مقطع، وذلك وفق مكانة هذا المقطع في حياة المزارعين. ونرى من خلال التسميات العربية توجّها تفضلياً لغوياً، لذلك فإنّ كُنية "جربان" الدارجة على لسان سگان كفر كنا وطرعان هي فظة قياساً بكُنية الأعوج الدارجة لدى سگان قرية المشهد. زد على ذلك أنّ الأسماء العربية أدّت وظيفة اقتصادية لأنها أُستُخدمت لترسيم الحدود بين أراضي القرى، وبالتالي كان لهذه الأسماء استخدامات عملية في الحياة اليومية. مثال ذلك أنّ مقطع الوادي الذي يُدعى "الأعوج" والأراضي المحيطة به تتبع للملكية قرية المشهد، فيما مقطع الوادي المسمّى "المغر" والقسم التي حوله هي ملكية أراضي طرعان. تتبدّى من خلال هذه الأسماء اللهجة الاجتماعية المتبعة في مجتمع الفلاحين الفلسطينيين لتعريف بيئتهم الطبيعية، إذ إن هذه اللغة تكشف عن الإلهام الذي وفّرت له الطبيعة على مجمل مصطلحات الحيز الجغرافي، وهي تعكس اللهجات العامية المتباينة التي تكلمت بها كل قرية. التسمية الإسرائيلية هي نتاج فعلة رسّام خرائط، وليس شخصاً أصلاً، ابن المكان يمشي به يومياً ويعيش فيه. أزال الخرائط العبرية المصطلحات المختلفة التي أطلقها كلّ قرية على قسم من أقسام الوادي القريب منها، وذلك بحسب تجربتها المكانية أو وفقاً لمكانة هذا القسم في الحياة الزراعية اليومية. التهويد قائم على تصنيف شمولي يتجاهل العلاقة المكانية الذاتية والملموسة، ويتجاوز التمايز اللغوي الناتج عنها. الانتقال من التسمية العربية إلى التسمية العبرية هو انتقال من علاقة شخصية وخاصة مع عناصر الطبيعة، إلى علاقة شمولية وباردة تعكس منظوراً من عل، كمن يرى من "عين الطائر".

تتبع تسميات لجان الأسماء الحكومية الإسرائيلية التي تقوم على مبدأي التوحيد والأحادية الدلالية، من اعتبارات عملية من جهة، وتشكّل من جهة أخرى حُجّة قومية لتبرير السيادة على الجغرافيا، هذه التسميات تخدم أغراضًا تواصلية وتخطيطية ضرورية للمجتمع الحديث، وفي الوقت ذاته تُعدّ شكلاً آخر من أشكال الرقابة على السكان الأصليين وأداة لقمعهم.

نحوياً. مثال ذلك "عين إم حميد" التي تحوّلت إلى عين حومط (بالعبرية، تعني عين الحرباء بيد أن الحرباء في العبرية هي أسم مذكر وليس مؤنث). وكذا حصل مع الدلالات الجندرية للأماكن التي سُمّيت تيمناً بالفتاة في يوم عرسها. أطلق الفلسطينيون على مواقع معينة، كالتي فيها أشجار وارفنة وكثيرة الظل كالخروب والزيتون، كُنية "العروس" أو "العرايس"، لأنهم أقاموا فيها طقوس زفاف نسائية، كزفة العروس أو تسليم العروس لأهل زوجها عندما كان زواج البديل. كذلك أطلقت أسماء "العروس" أو "العرايس" على أماكن جرت فيها طقوس نسائية لشابات في يوم أو ليلة زفافهنّ. فهذه عين العروس، وهي عين كانت بعيدة آنذاك عن الأماكن المأهولة وعن أعين الرجال، درج أهالي حرفيش والبلدات المجاورة على غسل العروس وتجهيزها فيها قبل الزفاف. وقد أُصطلح على هذه العين إضافة إلى عين البركة وجرن القاق المحاذيتين لها الاسم الإسرائيلي "عينوت عُباطة".

يتبدّى تغريب الهوية النسائية أيضاً في أسماء شملت مُرُكبات من حقل الدلالات النسائية. فمُصطلح "أم" بالعربية هو تأنيث الأب، ويشير أيضاً على مكان ذي علامة فارقة مميزة للبيئة. مثال ذلك "عين إم صفصافه" الذي تم عبرنته إلى "عين عفروني"، وأما "وادي إم القصب" أصبح "ناحل ألون". أما عين أم الفلوس، التي اكتسبت اسمها بسبب صفاء مياهها، "لو ألقيت فيه قطعة نقدية من فئة عشرة قروش فلسطينية، لرأيتها بعينيك"،³³ تم عبرنتها لتُصبح "عين أشتوري" نسبة إلى إشتوري هفارحي، وهو حاخام من القرن الرابع عشر.

ينشئ المصطلح "أم" علاقة أمومة مع الطبيعة ويؤنسها باعتبارها "أمنا-الأرض"، وهو يشير إلى علاقة ضاربة القدم بين الفلسطيني والأرض. أنّ محو مصطلح

التي تقوم على مبدأي التوحيد والأحادية الدلالية، من اعتبارات عملية من جهة، وتشكّل من جهة أخرى حُجّة قومية لتبرير السيادة على الجغرافيا، هذه التسميات تخدم أغراضًا تواصلية وتخطيطية ضرورية للمجتمع الحديث، وفي الوقت ذاته تُعدّ شكلاً آخر من أشكال الرقابة على السكان الأصليين وأداة لقمعهم. التوحيد والأحادية الدلالية هما مسألتان داخليتان يهوديتان، وتغيير الأسماء يُسوغ بذريعة أن التسمية الأصلانية غامضة، رغم أنها واضحة تماماً للسكان الأصليين، المجتمع العربي في حالتنا، ولا تعيق حركتهم أو إدراكهم للمكان. من خلال إعادة رسم الخرائط والأسماء، يُتاح المجال أمام جهات التخطيط الإسرائيلية للوصول إلى البيئة واستغلالها لأغراض اقتصادية وسياسية.

٢.٣ الذكورية عوضاً عن الأنثوية

في خطاب الاستيطان الصهيوني، بما في ذلك في الأدب العبري، وُصِفَ استيطان الأرض ومعرفتها كفعل جنسي يقوم به الرجل اتجاه المرأة، كما يتّضح من الاستعارات مثل "فداء الأرض" و"أرض عذراء" وغيرها. بالموازاة لهذه الرؤية، استنسخت التسميات الإسرائيلية علاقات السيطرة السياسية وميزان القوى غير المتكافئ في السياق الجندري والبطيركي، إذ اجتثت الصهيونية التصورات اللغوية والأسماء العربية-الفلسطينية النسائية والأنثوية التي سُمي بها المشهد الفلسطيني وفرضت أسماء ولغة ذكورية على المعالم الطبيعية. هكذا، استمرت الأسماء الإسرائيلية في خطاب رمزي يعكس سيطرة ذكورية أبوية على الحيز الجغرافي. يمكن رصد هذا الخطاب على مستويات عدة:

جرى استبدال اسم الفلاحة الفلسطينية أو اسم العروس بأسماء ذكورية خاصّة، أو بأسماء ذكورية

"أم" يفضي إلى قمع المخزون اللغوي الجندري للمكان، وللمدارك الجندرية له في الذهنية الفلسطينية، علمًا أن هذا المصطلح غير حاضر في الأسماء العبرية.

تتضح النظرة الجندرية التقليدية في المجتمع العربي-الفلسطيني عبر عدد هائل من أسماء النساء المنسوبة إلى مواقع طبيعية ومنحها دلالات لغوية أنثوية، وغيابها شبه التام عن أسماء القرى والبلدات العربية وإضفاء صبغة ذكورية على أسماء هذه القرى.^{٢٤} بحسب الأبحاث التي قمت بها تبين أن الأماكن التي تُنسب أسماءها العربية إلى الهوية الأنثوية هي في الغالب تكوينات جغرافية تُثير تداعيات وارتباطات ذهنية بالأعضاء التناسلية الأنثوية، مثل الينابيع والآبار والكهوف والشقوق.^{٢٥} هكذا تظهر التسميات باللغة العربية التأثير المتبادل بين المجتمع العربي-الفلسطيني والمكان: شبه المجتمع العربي-الفلسطيني الأمكنة المنخفضة والمخفية والجوفاء التي فيها شقوق وفُجوات بأعضاء امرأة وفتاة تحت تأثير مدارك اجتماعية جندرية، وبالتوازي ألهمت بعض المواقع هذا المجتمع بناء تصورات جندرية.

في أعقاب الخطاب الجندري الذي أنشأته الصهيونية جرى إقصاء الذات النسائية، التي تمثّل بالنسبة للفلسطينيين الحيز الداخلي للقرية، حقولها وعيونها ووديانها، وحلت محلها أسماء ذكورية غامضة، تميل هويتها الجنسية إلى أن تكون لغوية-نحوية أكثر منها إنسانية. كذلك خلقت التسميات الإسرائيلية الرسمية اغترابًا عن أعراف وذهنية تسمية الأماكن العربية-الفلسطينية وفقًا للمفاهيم الجندرية، وأزالت من المكان التقسيم التفاضلي الذي تميّزه الأسماء العربية بين الفضاءات الأنثوية والذكورية. وأمّا على المستوى الرمزي، يُمثل تجاوز الأسماء العربية-الفلسطينية فعلًا أوديبيًا (Oedipal)، لأنه يلغي التصورات الأنثوية للمشهد الجغرافي.

يدّعي المستشرقون أن نطاق نشاط المرأة الفلسطينية في الماضي اقتصر على المجال المنزلي.^{٢٦} لكن هذه الادعاء غير صحيح، إذ إن تنوع أنشطة المرأة الفلسطينية كان ينعكس أيضًا في الحيز العام. أسماء النساء، وألقابهنّ، وصورهن، وأجسادهن كانت تشكّل جزءًا بارزًا في هوية المكان ما قبل-الصهيونية. لقد تكوّن الفاعل الأنثوي في هذه الأسماء من خلال تحركات النساء وأنشطتهن في الحيز. فعلى سبيل المثال، كانت الفلسطينيات يُقمن طقوس الزواج تحت السماء

المفتوحة، كما يظهر في أسماء الأشجار والأماكن التي كانت تُسمّى "العروس" أو "العرائس". كما شاركت النساء في الأنشطة الزراعية والاقتصادية، التي انعكست في أسماء مسارات مثل "حجر الحطّابات"، الذي سُمّي "لأنّ الحطّابات اللاتي جمعنّ القشّ والأغصان والحطب من الوعر والغابات، كُنّ وهُنّ عائدات يضعنّ حزمة الحطب على الحجر. وكُنّ يسترحنّ هناك ومن ثمّ يُعدنّ إلى البلدة"،^{٢٧} و"خلة الطحّانات"، التي دعيت كذلك نسبة إلى نساء عيلوط اللاتي اعتدن المرور في هذا الموقع في طريقهنّ إلى طحن القمح في مطحنة صفورية، ذهابًا وإيابًا. تكشف الأسماء أنّ النساء اعتدنّ على السير في طرق معيّنة دون غيرها: فكانت هناك طرق أُعتبرت آمنة للسير من دون مضايقة الرّجال، وطرق أُعتبرت أقلّ أمانًا. الفصل الحيزي بين النساء والرّجال أثر على المصطلحات التي منحها المجتمع الفلسطيني لتسمية الأماكن وتشخيصها، كما أنّ هذه المصطلحات شكّلت إرشادًا لأبناء هذا المجتمع وبناته في كلّ ما يخصّ العلاقات الجندرية الجغرافية، بمعنى أنّ اللغة رسخت في وعي أهل القرية التمايز بين الأحياء الجندرية مختلفة.

٢.٤ التجميل

وصلتُ أنا وأمي [...] في الليل، ارتفعت صيحات طيور الليل وامتزجت بعواء ابن أوى والثعالب، بل وحتى الضبع أحيانًا.^{٢٨}

هذا الاقتباس من صبي مستوطن-مهاجر يروي أول لقاء له بالطبيعة التي يسكنها الفلسطينيون كما ورد في رواية "معين حرود". في نظرة هذا الصبي الذي قدم من أوروبا طبيعة البلاد مخيفة وتقطنها الوحوش. يتناسب هذا الوصف السلبي مع التصور الاستشراقي للقرية العربية التي أُعتبرت بدائية ومزرية، على عكس المدينة الأوروبية الحديثة، وكذلك بالنسبة إلى المستوطنات اليهودية الجذابة والمتقدمة.^{٢٩} وقد تجلّت هذه النظرة المتعترسة أيضًا في مجال الأسماء التي استرشد بها قادة الصهيونية. استخدمت الصهيونية عُرف "التجميل" اللغوي بدلًا من الأسماء العربية التي اعتبرتها الذهنية الصهيونية أسماء قبيحة، مضمونًا ودلالةً. فبعد مرور نحو سنتين على تأسيس إسرائيل أعلن بن غوريون: "الأسماء التي وجدناها {...} نغماتها غريبة عنّا {...} طابعها هجائي {...} معانيها الحزينة مُنقّرة".^{٣٠} يبدأ تعريف هوية أسماء الآخر بواسطة

التأكيد على دونيتها وباستعمال لغة مشحونة سلبية والتقليل من قيمة الآخر.^{٤١} الصفات "القبيحة" التي أُلصقتُ بالجغرافية الفلسطينية، ككنية عن الشرق، ترى في أسمائها دلالات غريبة وبائسة ومنفرة تتبع للزمن المتأخر ومن هنا التبرير لعملية التجميل (Euphemism) التي هي ليست في الواقع سوى فنّاع وتلطيف لفظي لاقتلاعها وجلب أسماء "لائقة" مكانها - أسماء عبرية. عملية تجميل الأسماء هي عُرف قديم ومعمول به في الثقافة العربية كجزء من تبديل عنصر لغوي سيئ بعنصر لغوي جيد ليصبح الاسم ذا دلالة إيجابية،^{٤٢} بيد أن هذا التحوير العربي، الذي سبق ظهور الحركة الصهيونية، لم يقصد به محو اسم القوميات الأخرى وفقًا لاعتبارات سياسية، وعلى الأقل لم يهدف إلى التنافس معهم على أرض إسرائيل/فلسطين، ذلك أن العرب حافظوا على أسماء كنعانية وآرامية وبيزنطية ويهودية،^{٤٣} مثال يبوس، عمقا، قرية عربية مهجرة، قيسارية، المدينة الرومانية، وبيارة اليهود نسبة إلى البيارة التي غرسها مستوطنني ملابس، التي دعت فيما بعد بيتح تكفا.

في لغة الفلاحين الفلسطينيين، تكثر الاستعارات للدلالة على مصادر المياه الغزيرة أو الشحيحة أو التي يصعب الوصول إليها. الينابيع الموسمية تركت روادها عطشى، وأحيانًا كانت الينابيع تُصدر أصوات ضجيج غريبة. الاستعارات العربية للدلالة على مصادر المياه أعتبرت نشازًا في أذان المهاجرين اليهود، وكان هذا هو السبب المعلن لاقتلاعها من الخريطة ومن المكان. مثلًا، عين المجنونة أصبح اسمها "ناحال بيت هعيمك" نسبة إلى الكيبوتس المجاور لها. عين المجنونة هو اسم استعاري مصدره قوة جريان المياه التي كانت تتدفق بأموج عاتية جرفت الأرض واقتلعت أشجار الزيتون بشكل جنوني. أثار هذا الضرر جنون أصحاب الأراضي المحاذية للعين، فقدوا صوابهم، وبقوا مكتوفي الأيدي أمام هذه المأساة. وهذه "عين السميتة" وهي اسم استعاري أطلق على النبع لأن جريانه كان يزداد شتاءً، بينما كان يجف في الصيف فيكون النبع ميتًا، وقد أطلق على هذا النبع الاسم العبري "عين يزريعيل"، الذي ينسب إلى "نبع يزريعيل" - المكان الذي استعد فيه، حسب الرواية التوراتية، شاول لحربه مع البلستيم (صموئيل الأول ٢٩: ١). أما "عين أم حجر" اكتسبت اسمها لأن مياهها تنبع من بين الحجارة، أصبحت "عين يرح" (أي عين الزهرة).

من الأسماء العربية-الفلسطينية الأخرى التي لا تستسيغها الأذن الإسرائيلية وتعتبرها مناهضة لقيمتها الجميلة أسماء الأرواح والحيوانات المفترسة وغيرها من الجماد. يعود مصدر اسم عين الجن، بمحاذاة وادي الليمون القريب من قرية صفد، إلى مياهه التي كانت تندفع بقوة بلحظة واحدة، وبعدها كانت تتوقف عن الجريان مرة واحدة. لقد أثارت هذه الظاهرة العجب لدى الفلاحين، واعتقدوا أن جنًا يقطن في هذه العين. الاسم العبري الذي أطلق على هذه العين هو "عين بوعيم" (أي العين النابضة)، وهو اسم يشبه فعل الماء بعمل القلب. وهذا اسم الضبع أطلق على مواقع طبيعية كانت بمثابة وكر لهذا الحيوان. فهذا وادي المضابح استُبدل باسم "ناحال تسفييه" (أي وادي غزالة)، وتل أبو خنازير أصبح هار "شيبون"، نسبة إلى الجاودار (أو الشوفان) الذي ينمو على مناطق في جبل سيناء.

٣. كيف نفسر تحفظات الصهيونية على المصطلحات العربية-الفلسطينية التي تُعتبر منفرة؟

لا تتعلق التحفظات الإسرائيلية على الأسماء العربية بعيوب جمالية في هذه الأسماء ونطقها فحسب، مع أن بعض الأسماء العربية مُخيفة. وصف هذه الأسماء على أنها تعبيرات قبيحة هو موقف أيديولوجي مُقنّع يعرض كحقيقة من أجل استبعاد "الآخر". ينبع النفور من الأسماء العربية، أولاً وقبل كل شيء، من وجودها وكيونتها؛ ففي نهاية المطاف، هناك أيضاً أسماء جغرافية مُرعبة في المنظومة السيميائية العبرية. ومن الأمثلة على ذلك "ناحال أفعا" (أي، وادي أفعى)، أو "معاليه عكريم" (أي مرتفع العقارب) وكذلك كلمة ضبع تتكرر في الأسماء العبرية مثل "هار تسافوع" (أي جبل الضبعة) وكيف لنا أن نفهم اسم هار بيرخ (جبل الرُكبة)؟.

أسماء الحيوانات المفترس والجن والجماد وغيرها لا تعبر عن القيم الجمالية أو القبيحة التي استرشد بها أبناء المجتمع العربي-الفلسطيني وبناته، ولم تستخدم هذه الأسماء لتذويت قيمهم في الطبيعة وإلقاء هويتهم عليها، بل هي محاكاة لمكونات الطبيعة والمملكة الحيوانية وتعكس طبعها وطبيعتها، وتُعبّر هذه الأسماء

صُممت عادات التسميات الإسرائيلية للمواقع الطبيعية خلافًا لأعراف التسميات العربية-الفلسطينية، وسعت التسميات ليس فقط إلى خلق تباين نقضي بينهما، بل جُندت إلى الابتعاد عن الموروث اللغوي المكاني الأصلي وإلى إقامة الحدود معه وإبراز خصوصيتها. تعني هذه الممارسات الطوبونية أن الخطاب الإسرائيلي لم يتشكل فقط انطلاقًا من الاهتمام بالدلالات الجغرافية المحلية العربية، بل أيضًا من خلال الإلمام بها والصراع معها.

الفلسطينية، بل أيضًا عن أولئك الذين أنتجوها. كيف يمكن للمرء، على سبيل المثال، تبرير تغيير اسم "عين الورد" - الذي كانت مريم العذراء تستقي منه الماء، وعندما كانت تصل إليه، حسب الرواية الشعبية، كانت الورد تفوح منه عبيرًا زكيًا؛^{٤٥} وتم تغييره إلى "عين حيا" (حاحام من فترة الفقهاء اليهود)، وكيف يمكن للمرء تبرير تغيير اسم "شنارة"، (أي الحجلة، وهو نوع من الطيور)، إلى "شنورة" (وهو قط بري). إذًا السبب وراء الحذف ليس دلاليًا فقط، بل سياسيًا هدف إلى اقتلاع الآخر، "يجب علينا إزالة الأسماء العربية لأسباب سياسية" مثلما صرح دافيد بن غوريون.^{٤٦} في مُخيلة الخطاب الصهيوني صُورت البلاد على أنها فقير ومُهملّة لذا يستوجب على المستوطنين تحويلها إلى بلاد حضرية وإحياءها. لقد كانت هذه التصوّرات تهدفُ إلى إخفاء الصراع الحقيقي مع السكان الأصليين، الفلسطينيين، وصرف الانتباه إلى العوامل الطبيعية.^{٤٧} في النظرة الصهيونية، كما في حسابات الاستعمار الأوروبي، فشل الفلسطينيون في تجويد المشهد الطبيعي، لذلك كان للمستوطنين الرواد الحقُّ في أخذ مكانهم لترويضه وجعل "البلاد القاحلة" متحضرة ومثمرة.^{٤٨} ادعاء إحياء البلاد القاحلة معهود من عملية الاستيطان الأوروبي في المستعمرات التي غزوها، على سبيل المثال موقف المستوطنين تجاه السكان الأصليين في أميركا، الذين اعتبروا أنفسهم "ملتزمين بمهمة حضارية".^{٤٩} الأسماء العربية "هار شيبون"، و"عين بريح"، و"ناحال تسفيه"، مستوحاة من العمل والإزهار والجمال، وهي ترجمة لمفهوم "هافراحات هشما" (أي إحياء القحط). توضح هذه الأسماء كيف وظّف المهاجرون اصطلاحات البيئة الطبيعية كأداة خطابية يهودية داخلية لتشجيع الاستيطان وتقديم الطبيعة كمكان قابل للزراعة والحياة.

بلغة عاطفية ومجازية عن حيرة الفلاحين وعجزهم أمام قوى الطبيعة.

من خلال قراءة سيميائية في البدائل العربية للأسماء العربية نستبصر أنها لا تقتصر على مقارنة الجمال بالقبح فحسب، بل تُعبّر أيضًا عن رؤية استعلائية، تهدف إلى إنتاج تمايز ثقافي وإبرازه بين العرب، الشرق البدائي، والمهاجرين، المجتمع الحديث، من خلال الابتعاد عن الأسماء العربية ووضع الحدود بينهما. يقول ميرون بنفنستي إنه من وجهة النظر الصهيونية لا يرى العرب أنفسهم كمن تتبع البلاد لهم لذلك أهملوها على العكس من الصهيونية التي تعتبر البلاد ملكيتها ولذلك طورتها وحافظت عليها.^{٥٠} يُخفي عُرف التجميل اللغوي للمشهد الما- قبل الصهيونية في باطنه اعتبارات قومية سياسية - أضفى الإسرائيليون هوية جمالية وإيجابية على المكان لأنه ملكيتهم بحسب وجهة نظرهم بينما أهمله العرب لأنهم لا يشعرون بالانتماء إلى المكان. بالإضافة إلى ذلك كانت لتجميل صورة الطبيعة أيضًا غاية عملية: إزالة النفور الذي من الممكن أن تُثيره المصطلحات العربية، إذ اعتُبرت ضريبًا ذهنيًا يهدد مشاعر المهاجرين. ويبدو أن لجان التسميات الإسرائيلية تجنبت ترجمة الأسماء العربية "المثيرة للاشمئزاز"، بينما ترجمت أسماء عربية أخرى، خشية من ألا تحقق الترجمة العربية غرضها في قصة الاندماج الملموس للمهاجرين في الحيز الجغرافي.

الأسماء العربية هي نوع من التجويد والتزيين اللغوي وتستند إلى موقف مفاده أن المفردات العربية لا تتناسب مع ذهنية القادمين اليهود وقيمهم الجمالية، ومن هنا جاء التبرير الأخلاقي لاستبدالها باصطلاحات مُزينة و"جميلة". والحقيقة أن البدائل العربية هدفّت إلى خلق مسافة ليس فقط عن المنظومة الطوبينية

على النقيض من ذلك، فإن لغة الأسماء الفلسطينية وتصوراتها اللغوية عفوية وعضوية، نابعة من الأرض ذاتها. فهي تعبر عن علاقات متبادلة بين الإنسان والمكان، وعن خبرات الفلسطينيين بالمكان وصلتهم الشخصية والحميمة والمباشرة بالطبيعة. هي نتاج معرفة محلية-عينية وذاكرة مجتمعية ما قبل-وطنية.

٤. تفكرات ختامية: الأسماء

في خدمة النأي عن ثقافة "الأخر"

تكشف أسماء الأماكن والمعالم الطبيعية عن معتقدات مانحيها وعن طرق تفكيرهم ونظرتهم إلى المكان والبيئة، علاوة على ذلك فهي تكشف عن مدارك الشعوب لبعضها البعض، خاصة نظرة المهيم تجاه ثقافة الآخر، خاصة إذا كان البحث يعتمد مقارنة الأسماء بين لغات مختلفة. يكشف هذا البحث عبر مقارنة الأسماء العربية والعبرية أنه بالرغم من أن الفلسطينيين والإسرائيليين يعيشون في المكان نفسه فإن رؤيتهم، للبيئة متباينة.

لا تقتصر العلاقة بين الأسماء في اللغتين العبرية والعربية على الصراع القومي-السياسي فحسب، إنما تشير إلى علاقات لغوية وثقافية وسياسية معقدة ومركبة بينهما وتشمل مستويات عدّة، حيث يبقى الجانب القومي-السياسي، على الرغم من دوره المحوري الرمزي في ترسيخ الحق التاريخي واستملاك الأرض إسرائيليًا، ليس سوى أحد مكونات هذه العلاقات. من وجهة نظري، اختارت لجان التسميات الإسرائيلية أسماء الأماكن بوحي كامل بمعاني الأسماء العربية وخلفياتها، ورأت في منظومة التسميات وسيلة للنأي بنفسها اجتماعيًا وثقافيًا عن ثقافة "الأخر".

استرشدت عبرنة المشهد الطبيعي وفق اعتبارات ثقافية وجنسانية ولغوية وتواصلية متأصلة في التسميات العربية-الفلسطينية لكي تتجاوز أعراف هذه التسميات وموتيفاتها. بالتوازي أخذت العبرنة بالحسبان اعتبارات ثقافية إسرائيلية مجتمعية داخلية، فالتسمية العبرية ليست غائبة فحسب، بل ترى في الأسماء العربية-وسيلة وغاية في آن واحد، وسيلة لإعادة صياغة هوية المكان، وغاية مرتبطة باعتبارات وجودية مستمرة من المحو والتوسع في امتلاك الأرض.

يكمُن في قلب نظام تجاوزات هوية المشهد الطبيعي نهج متعدد الطبقات والآليات من التغريب (defamiliarization) ومن التطبيع (Naturalization): من ناحية تغريب أعراف التسميات العربية-الفلسطينية ودلالاتها الثقافية، ومن ناحية أخرى تسويق الأسماء العبرية وأعرافها على أنها نتاج طبيعي وأمر اعتيادي لا تشوبه أبعاد سياسية. لم تطمس تسميات المواقع الإسرائيلية الأسماء العربية-الفلسطينية فحسب، بل اقتلعت عادات وأعراف التسميات العربية-الفلسطينية وطرائق تصنيفاتها اللغوية على مستويات عدّة: التوحيد فضلًا عن التمايز، الأحادية الدلالية فضلًا عن التمايز، الذكورية فضلًا عن الأنثوية والتجميل. هدفت هذه التحويرات إلى خلق مشهد ثقافي جديد عوضًا عن المشهد العربي القديم.

صُممت عادات التسميات الإسرائيلية للمواقع الطبيعية خلافًا لأعراف التسميات العربية-الفلسطينية، وسعت التسميات ليس فقط إلى خلق تباين نقضي بينهما، بل جُندت إلى الابتعاد عن الموروث اللغوي المكاني الأصلي وإلى إقامة الحدود معه وإبراز خصوصيتها. تعني هذه الممارسات الطوبونومية أن الخطاب الإسرائيلي لم يتشكل فقط انطلاقًا من الاهتمام بالدلالات الجغرافية المحلية العربية، بل أيضًا من خلال الإلمام بها والصراع معها. أدرك المستوطنون أصالة الأسماء الفلسطينية وعمقها في التاريخ والأرض، واعتبروها ثروة لغوية وثقافية تهدد الخريطة العبرية الناشئة. يدُل هوس الصهيونية من الأسماء الفلسطينية واقتلاعها على انعدام الثقة في الحق التاريخي المتعلق بهوية الجغرافية والمكان.

كانت الأهداف من الاصطلاحات اللغوية التي فرضت على المشهد الطبيعي متعددة، سياسية وثقافية وعملية، دعم الرواية السياسية الإسرائيلية، وبالتوازي جزءًا من

عملية إنشاء منظومة أسماء تتوافق مع الرموز اللغوية، والقيم الثقافية، والإرث الفكري، والعقلية اليهودية الغربية. استخدمت لجان التسمية الإسرائيلية الأشكال اللغوية الفلسطينية للنأي بنفسها عنها، لأن الواقع اللغوي والفكري والمسائل التي تعكسها هذه الأسماء اعتُبرت أنماطاً معرفية غير مناسبة لوصف هوية المكان من جهة، وتتعارض مع الذهنية الإسرائيلية، مع عملية التواصل اللغوي والثقافي بين الإسرائيليين والبيئة من جهة أخرى. كما كان لتسمية المشهد الطبيعي باللغة العبرية بدلاً من اللغة العربية وظيفة عملية: الحد من اغتراب الإسرائيليين الأوائل عن البيئة، وتعزيز الصلة والارتباط بينهم وبين الأرض، وبمناظر إسرائيل الطبيعية، وبأرض الكتاب المقدس والتوراة.

مُعجم أسماء المعالم والمواقع الطبيعية الذي اختارته الصهيونية معجم انتقائي وحصري وأسماءه مصنوعة. فمن خلال المصطلحات العبرية أطرت الصهيونية على الأرض بوصفها مكاناً خلّاباً، أرض الشغف والنهضة والتقدم، والاستيطان والجمال، والوعد بمستقبل مجيد. وقد حاكت هذه المصطلحات المخزون الثقافي الإسرائيلي، فأعدت تأكيد أسلوب حياة وقيم جمالية ووطنية وحدائية تتناسب مع العقلية الثقافية الإسرائيلية والجغرافية التوراتية والدينية اليهودية.

على النقيض من ذلك، فإن لغة الأسماء الفلسطينية وتصوّراتها اللغوية عفوية وعضوية، نابعة من الأرض ذاتها. فهي تعبر عن علاقات متبادلة بين الإنسان والمكان، وعن خبرات الفلسطينيين بالمكان وصلتهم الشخصية والحميمة والمباشرة بالطبيعة. هي نتاج معرفة محلية-عينية وذاكرة مجتمعية ما قبل-قومية. لم تكن لغة الأسماء العربية-الفلسطينية انتقائية، بل شمولية، ولم تلتزم بمعيار جمالي يهدف إلى إرضاء مستخدميها أو جذبهم. فالاسم الذي لاءم وصف المكان أو حالته، أو عكس حدثاً وقع فيه، هو الذي مُنح للمكان. الأسماء العربية أسماء زراعية-قروية و"طبيعية" (naturalistic)، مشتقة من الطبيعة وتشهد على قرب العرب من الطبيعة وصلتهم الحميمة بها، بينما على العكس من هذه الأسماء "الطبيعية" هدفت الأسماء العبرية إلى تغريب وتشويه "طبيعية" العلاقة بين العربي والمشهد لكي تخفي هذه العلاقة المفقودة عند المهاجرين والإسرائيليين الأوائل، الذين كما تقول باحثة الأدب العبري حنة نافيه حسدوا عرب البلاد على

قربهم من الطبيعة ومعرفة خباياها كما يتضح من الأدب العبري.^{٥٠}

تشير التسميات العربية إلى أن علاقة الفلسطينيين بالبيئة الطبيعية علاقة مركبة وحاوية وشمولية، تشمل البشر، والحيوانات، والجماد والأرواح. تصف هذه الأسماء ماضي المكان وتنقل مزاياه وتدل على مورفولوجيا الطبيعة وعالم النبات والحيوان. استخدمت الأسماء في حياة المجتمع الفلسطيني اليومية الريفية والزراعية. يتبين من أسماء المعالم الطبيعية أن الفلسطينيين اعتبروا الأرض مكاناً للرزق والعيش وللنشاطات الاجتماعية، وليس مكاناً للهمينة ومحو الآخرين. في التصورات اللغوية الجغرافية الفلسطينية، كما في تصور السكان الأصليين، تُعتبر الطبيعة بجميع أجزائها كائناً حياً وروحانياً، وتُنسب إليها قوة ومزايا إنسانية. ارتبط الفلسطينيون بالطبيعة بمشاعر حب، لكن هذا الحب تبدل مع خيبة أمل عندما لم تلب الأرض الطبيعية احتياجات السكان.

على النقيض من ذلك في الخطاب الإسرائيلي، العلاقة مع الطبيعة كانت هرمية وسياسية. نظر هذا الخطاب إلى الطبيعة وفق مسلماتٍ مسبقة، واعتبرها مورداً يجب النضال من أجل نزعها من الآخر. يتجذر هذا المفهوم في جوهره في الافتراض الغربي القائل بأن الأرض موضوع سيطرة.^{٥١} تلعب الأسماء العبرية دوراً في توطيد الملكية الإسرائيلية الحصرية للمكان، كجزء من الصراع الإسرائيلي الفلسطيني على الأرض، وترسيخ الحقب التاريخية الإسرائيلية واليهودية، وإظهار التفوق على الطبيعة، وتغيير استعمالاتها وهويتها. يرتبط الاختلاف في عملية تسمية هذه الأماكن واستعمالاتها باختلاف تصور الفلسطينيين والإسرائيليين للمعالم الطبيعية.

- Noga Kadman, *Erased from Space and Consciousness: Israel and the Depopulated Palestinian Villages of 1948* (Bloomington: Indiana University Press, 2015). (Barak and Hadad, 2024 777-778) ١٦
- Jeffrey Gordon, "Onondaga Iroquois Place-Names: An Approach to Historical and Contemporary Indian Landscape Perception." *Names* 32, no. 3 (1984): 218-33 ١٨
- W. J. T. Mitchell, *Landscape and Power* (Chicago: University of Chicago Press, 1994) ١٩
- Robert Hodge and Gunther Kress, *Language as Ideology* (London and New York: Routledge, 1993); Reuben Rose-Redwood, "Reclaim, Rename, Reoccupy: Decolonizing Place and the Reclaiming of PKOLS." *ACME* (2016): 188-206 ٢٠
- Rose-Redwood, Reuben, Derek Alderman, and Maoz Azaryahu. 2010. "Geographies of Toponymic Inscription." *Progress in Human Geography* 34(4): 453-70 ٢١
- Keith H. Basso, *Wisdom Sits in Places* (Albuquerque: University of New Mexico Press, 1996). ٢٢
- J. Edward Chamberlin, *If This Is Your Land, Where Are Your Stories? Reimagining Home and Sacred Space* (Cleveland: Pilgrim Press, 2003) ٢٣
- Robert J. C. Young, *Postcolonialism: A Very Short Introduction* (Oxford: Oxford University Press, 2003); Edward W. Said, *Orientalism* (New York: Pantheon Books, 1978) ٢٤
- Amnon Raz-Krakotzkin, "Galut Betoch Ribonut: Lebikoret Shlilat Hagalut Batarbut Ha-Yisraelit" [Exile Within Sovereignty: Toward a Critique of the 'Negation of Exile' in Israeli Culture], *Te'urya ve-Bikoret (Theory and Criticism)* 3 (1993): 23-56 ٢٥
- Amer Dahamshe, *Name for a Place: The Names of Arab Settlements in the Galilee and the Names of Natural Features in the Folk Narrative*, PhD diss., Hebrew University of Jerusalem, 2009, vol. 2 بالعبرية ٢٦
- عراف شكري، *المواقع الجغرافية في فلسطين: الأسماء العربية والتسميات العبرية* (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٤)؛ منحيم ماركوس ويوفال اليعزري، *انسكلوبيديا مفا: كل المستوطنات وكل المواقع في إسرائيل* (تل أبيب: هنوعه مفا - المجلدات والتوثيق، ٢٠٠١). ٢٧
- Barbara McKean Parmenter, *Giving Voice to Stones: Place Identity in Palestinian Literature*. (Austin: University of Texas Press, 1994) ٢٨
- عوز ألموج، *الصابرا: صورة شخصية* (تل أبيب: دار نشر عام عوفد، ١٩٩٧): ٣٠١-٣٠٣. بالعبرية. ٢٩
- Amos Oz, *Where the Jackals Howl: And Other Stories*, trans. Nicholas de Lange and Philip Simpson (Boston: Mariner Books, 2012). ١
- Patrick Wolfe, "Settler Colonialism and the Elimination of the Native." *Journal of Genocide Research* 8, no. 4 (2006): 387-409 ٢
- بن غوريون إلى لجنة النقب، تم تقديمه في جلسة لجنة النقب في ٢٠ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٩. *شنتون هممشالاه* [السبوتية الحكومية] (القدس: دار الطباعة الحكومية، ١٩٥١): ٢٧٩. ترجمة كاتب المقال: عامر دهامشة. ٣
- نوفا كدمان، على جوانب الطريق وفي هوامش الوعي: إقصاء القرى العربية التي أفرغت عام ١٩٤٨ من الخطاب الإسرائيلي. تل أبيب: دار نشر نوفمبر، ٢٠٠٨، ص ٣٠-٣٢. ٤
- ميرون بنفينستي، *حلم الصابرا الأبيض* (تل أبيب: دار كيتير للنشر، ٢٠١٢). بالعبرية. ٥
- Maoz Azaryahu and Arnon Golan, "Re(naming) the Landscape: The Formation of the Hebrew Map of Israel 1949-1960." *Journal of Historical Geography* 27, no. 2 (2001): 178-95 ٦
- Naftali Kadmon, *Toponymy: The Lore, Laws and Language of Geographical Names* (New York: Vintage Press, 2000). ٧
- معوز عزريياهو، *عن الاسم: التاريخ والسياسة في تسمية الشوارع في إسرائيل* (القدس: دار نشر ماغنيس، ٢٠١٢). بالعبرية. ٨
- Yasir Suleiman, *A War of Words: Language and Conflict in the Middle East* (Cambridge: Cambridge University Press, 2004) ٩
- Chatterjee, S., and J. T. Kenny. "Creating a New Capital: Colonial Discourse and the Decolonizing of Delhi." *Historical Geography* 27 (1999): 73-98 ١٠
- Gary Fields, *Enclosure: Palestinian Landscapes in a Historical Mirror* (Berkeley: University of California Press, 2017) ١١
- Nur Masalha, *Palestine: A Four Thousand Year History* (London: Zed Books, 2018). ١٢
- Meron Benvenisti, *Sacred Landscape: The Buried History of the Holy Land since 1948* (Berkeley: University of California Press, 2000) ١٣
- Kimmerling, *Zionism and Territory: The Socio-Territorial Dimensions of Zionist Politics* (Berkeley: University of California Press, 1993) ١٤
- بالاستعارة من: زلي غورفيتش وجدعون آران، "عن المكان- أنثروبولوجيا إسرائيلية"، *مجلة ألفايم* (١٩٩١)، العدد ٤: ٤٤-٩. بالعبرية ١٥
- See: Nur Masalha, *Palestine*; Meron Benvenisti, *Sacred Landscape* ١٥

- ٤٢ مقتبس عند أنسون راينر " اسم، أسماء أماكن"، موسوعة توراتية رقم ح، ص ١١-٢٩، مؤسسة ببالك، القدس ١٩٨٢. بالعبرية
- ٤٣ عامر دهامشة، سبق ذكره.
- ٤٤ Klaus Eder, .93. حلم الصابرا الأبيض: "The Rise of Counter-Culture Movement against Modernity: Nature as a New Field of Class Struggle." The Culture Society 7 (1990): 21-47 Eder, "The Rise of Counter-Culture Movement against Modernity: Nature as a New Field of Class Struggle." The Culture Society 7 (1990): 21-47
- ٤٥ الراوي: أمين بشر صفوري. تاريخ المقابلة سنة ٢٠٠٣.
- ٤٦ لجنة تحديد أسماء الأماكن في النقب، الاجتماع رقم ٨، بن غوريون إلى لجنة النقب (١٩٤٩/١٠/٢٠)، أرشيف الدولة: أرشيف بتور، ٢٦١٣/٣.
- ٤٧ Baruch Kimmerling, Zionism and Territory: 201-204.
- ٤٨ W. J. T. Mitchell, Landscape and Power
- ٤٩ James C. Scott, Seeing Like a State (New Haven and London: Yale University Press, 1998): 32
- ٥٠ حنة نقيه ، نوسعيم ونوسعوت: حكايات سفر في الأدب العبري الحديث (تل أبيب: مكتبة وزارة الأمن، ٢٠٠٢). بالعبرية
- ٥١ Klaus Eder, "The Rise of Counter-Culture Movement against Modernity: Nature as a New Field of Class Struggle." The Culture Society 7 (1990): 21-47
- ٣٠ Amy DeRogatis, Moral Geography: Maps, Missionaries, and the American Frontier (New York: Columbia University Press, 2003).
- ٣١ الاسم العبري المستحدث هو مفترق هموفيل.
- ٣٢ Jeffrey Gordon, "Onondaga Iroquois Place-Names"
- ٣٣ الراوي: محمد زعبي، طمرة الزعبية. تاريخ المقابلة ٢٠٠٥.
- ٣٤ عامر دهامشة، في حضرة الأسماء - قراءة نقدية وأدبية في أسماء البلدات والمعالم الطبيعية العربية-ال فلسطينية حتى سنة ١٩٤٨ وما بعده. (حيفا: مدى الكرمل ٢٠٢٥).
- ٣٥ Amer Dahamshe, "Symbolic Distinction in Traditional Palestinian Toponymy: Class, Gender, and Village Prestige in Palestinian Space in Israel." Narrative Culture 5, no. 1 (2018): 95-120
- ٣٦ Susan Slyomovics, The Object of Memory: Arab and Jew Narrate the Palestinian Village (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1998)
- ٣٧ الراوي: محمد عبد القادر كريم. تاريخ المقابلة ٢٠٠٤.
- ٣٨ زرّيبيل جلعاد ودوروثيا كروك، معيان جدعون (تل أبيب: دار النشر الكيبوتز الموحد، ١٩٩٠): ٢٧-٢٨.
- ٣٩ عوز ألموج، الصابرا؛ Edward W. Said, Orientalism
- ٤٠ شنتون همشالاه [السنوية الحكومية] (القدس: دار الطباعة الحكومية، ١٩٥١): ٢٧٩.
- ٤١ Dana Holden, "On Equal Ground: Sustaining Virtue among Volunteers in a Homeless Shelter." Journal of Contemporary Ethnography 26 (1997): 117-45